



+ آباؤنا القديسون

البار ابرامبوس

تُعيد الكنيسة المقدسة في التاسع والعشرين من تشرين الأول لتذكار البار ابرامبوس وابنة أخيه مريم الرهاويين. لقد كتب القديس افرام السرياني سيرة البار ابرامبوس وأسماه «ابراهيم الثاني» لما أظهره من أمانة تجاه الرب.

ولد ابرامبوس في أوائل القرن الرابع، في مدينة الرها، لوالدين تقيين وغنيين جداً، ربّاه على الإيمان القويم والتقوى ومحبة الفضيلة كما حرصا على تأمين التحصيل العلمي له لكي يصل إلى المناصب الفضلى، لكن رغبة ابرامبوس كانت تختلف عن رغبة والديه، إذ أظهر انعطافاً كبيراً نحو الفضائل المسيحية وحب التوحد والنسك والابتعاد عن الأمور الدنيوية، فانكب على دراسة الكتاب المقدس ولم يعد يبارح الكنيسة ولا يفوت صلاة.

حاول والداه تغيير مسار حياته فخطبا له فتاة أجبراه على الزواج بها. وفي ليلة الزفاف، وفيما الجميع يحتفلون، هرب ابرامبوس من منزله قبل أن يعرف زوجته، ومضى إلى البرية حيث وجد قلابة صغيرة معزولة أوى إليها بفرح شاكراً الله. كان عمره يومها عشرين سنة.

بقي أهله يفتشون عنه سبعة عشر يوماً إلى أن وجدوه في القلاية. حاولوا إقناعه بالعودة إلى حياة العالم لكنه أصرّ على البقاء في النسك، وحثّهم على الصلاة من أجله لكي يمنحه الله نعمة أن يحمل على عاتقه، إلى نهاية حياته، نير التوبة الذي ألهمه الله أن يحمله. فاضطروا أن يتركوه بسلام ويعودوا أدراجهم. أما هو فسدّ باب القلاية بالحجر والطين وأبقى طاقة صغيرة يتلقى عبرها القوت في الوقت المناسب.

بلغ ابرامبوس درجة سامية من الكمال في فترة قصيرة وحصل على هداوة الروح ونقاوة العقل والسلام الداخلي. ذاع صيته فتوافد إليه المؤمنون طالبين الإرشاد والصلاة من أجلهم. أما هو فكان يشجع ضعيفي النفوس ويرشد المشكّكين ويصلي من أجلهم. وبعد فترة إثنتي عشرة سنة توفي والداه، فأوكل ابرامبوس إلى أحد أصحابه الأمناء أن يبيع كل الأملاك ويوزعها على الفقراء. وهكذا أصبح بالفعل حراً من أثقال الدنيا، ولم يبقَ له سوى ثوبه الرثّ والحصيرة التي ينام عليها.



+ آباؤنا القديسون

في ذلك الوقت، واجهت أسقف مدينة الرها مشكلة مع الوثنيين في تلك المدينة إذ أصبحوا أشد قساوة مع مَنْ كان يأتيهم مبشراً بإيهم بالمسيح، ولم يستطع أحد أن يجلبهم إلى الإيمان. أخيراً الكهنة أسقفهم عن أبراميموس وفضائله، فارتأى الأسقف أن يرسم أبراميموس كاهناً ليشتر الوثنيين، وقصده في منسكه ليقنعه بالأمر، لكن أبراميموس رفض الفكرة أولاً لكنه رضخ أخيراً لإرادة الأسقف رغماً عن إرادته، وبدأ مرحلة جديدة من حياته.

صلى أبراميموس إلى الله واتكل عليه في عمله، وكان أول ما قام به بناء كنيسة ليجمع فيها المؤمنون، وبدأ يعظ أبناء المدينة، لكن قلوبهم كانت غليظة فلم يهتدوا. وكان يسير كل يوم في شوارع المدينة بين الأصنام، إلى أن احتدمت في نفسه غيرة الرب وقام بتحطيمها مع المذابح الوثنية. هجم عليه الوثنيون وضربوه بقساوة وأخرجوه خارج المدينة. عاد ليلاً، سراً، إلى كنيسته وتضرع إلى الله لكي يترأف بشعبه ويهديهم. أما هم ففتشوا عنه وانهملوا عليه ضرباً فيما كان يحاول إقناعهم بالإيمان بالله، ثم ربطوه بحبل وسحبوه في شوارع المدينة ورموه بالحجارة، وأخيراً تركوه خارج أسوار المدينة بين حي وميت. أنهضته نعمة الله وعاد إلى الكنيسة ليصلي من أجل الذين ضربوه. ولما رآه في الصباح التالي يصلي ويرتل ويسبح الله أعادوا الكرة وضربوه ضرباً مبرحاً. وبمقدار قساوتهم كان صبره وإيمانه ورجاؤه بالله.

بقي أبراميموس يحتمل منهم العذابات مدة ثلاث سنوات، لم يستطع خلالها إقناعهم، لكنه كان دائم التضرع إلى الخالق لكي ينير عقولهم. وفي أحد الأيام، فيما كانوا يتحدثون عن صبر أبراميموس ومحبتة تجاههم، تحركت قلوبهم وأقروا أن إله أبراميموس هو الإله الحقيقي، وذلك استناداً إلى تصرف أبراميموس معهم. جاؤوا إلى أبراميموس وأعلنوا إيمانهم بالله فعمدهم وكان عددهم نحو الألف. وبقي يعلمهم مدة سنة كاملة، يشرح لهم الكتب ويوطئهم في الفضائل.

وبعدما أيقن أبراميموس ثباتهم في الإيمان ترك المدينة سراً، بعد أن باركها ثلاثاً بإشارة الصليب، وقصد البرية حيث لم يستطع أحد العثور عليه. بكى الشعب بكاءً مرّاً على غيابه، ورفعوا الأمر للأسقف فأقام عليهم كهنة من بينهم. فرح أبراميموس للأمر وعاد إلى منسكه الأول، وصاروا يقصدونه من وقت لآخر لأخذ الإرشادات.

لم يدع الشيطان أبراميموس يرتاح، خاصة بعد نجاحه في الإفلات من التجارب السابقة. حاربه بفكر الكبرياء والمجد الباطل، إلا ان تواضع القديس كان يطرد كل فكر شرير. حاربه أيضاً بالصور



+ آباؤنا القديسون

المرعبة ولكنه لم ينش عن محبة الله، وكان كلما سقط أخ في خطيئة يذرف الدموع ويتضرع إلى الله من أجله ليخلص.

التجربة الأخيرة كانت ما حصل لابنة أخيه مريم التي تيمت وأوكل إليه أمر رعايتها فوضعها في قلاية قريية منه، لها نافذة من ناحيته، وانكب على تعليمها الصلوات والفضائل المسيحية فاكسبت الكثير منه، حتى أنها أدهشت القديس افرام السرياني بسمو حياتها المسيحية. لكن الشيطان عمل بعد عشرين سنة على إسقاطها عن طريق راهب شرير أغواها وأغرقها في خطيئة الزنى. ولما وعت خطيئتها دب فيها اليأس وهربت إلى مهنة الفجور تاركة عمها أبرامبوس وحده.

حزن أبرامبوس لغياب مريم وبكى كثيراً وصلّى مدة سنتين لأجلها، إلى أن علم بإمكان وجودها وعملها. تنكر في ثياب جندي وامتنى حصاناً وقصد المدينة حيث هي. هناك أعطى صاحب الفندق مالاً ليرتب له موعداً مع تلك الفتاة. وعندما أكل لحمًا وشرب خمرًا اختلى بها في غرفته وكشف لها عن وجهه. لما عرفته كادت تموت من شدة الخجل، أما هو فحضرها برأفته ومحبتة وشجعها على العودة معه إلى حياة النسك، مؤكداً لها انه سوف يحمل خطيئتها وسوف يقوم بالجهادات اللازمة عنها لكي يغفر الله لها، وإن الله يغفر للتائبين بصدق.

عادت معه، وكان فرحه بعودتها كفرح الأب بعودة الإبن الضال، وكان دائم الصلاة من أجلها. أما هي فباشرت حياة توبة قاسية، بالأصوام والأسهار والصلوات ولبس المسح. وقد منحها الله لاحقاً نعمة موهبة الأشفية. واستمرت في هذه الحياة مدة خمس عشرة سنة، رقدت في نهايتها بسلام، وانبعث من وجهها نور عظيم ساعة موتها. فمجد جميع الحاضرين الله القابل للتوبة الحقيقية.

أما أبرامبوس فلم يعيش بعد عودة مريم إلا عشر سنوات قضاها في شكر دائم لله على عودة ابنة أخيه، وكان عزاءه كبيراً بمشاهدتها تتقدم في حياة القداسة. وكان رقادها بالرب بسلام عام ٣٧٠. فبشفاعتها ألهم ارحمنا وخلصنا آمين.